سلسلة خبايا الزوايا (٣٣)

وصية
القاضي
أبي الوليد الباجي لولديه

تحقيق

جودة عبد الرحمن هلال

مجلة المعهد المصري
للدراسات الإسلامية في مدريد
المجلد الأول
١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م
العدد الثالث

وزارة التربية والتعليم ، مصر — الإدارة العامة للثقافة العامة

مجلة المعهد المصري

للدراسات الإسلامية في مدريد

يصدرها المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد

رئيس التحرير : مدير المعهد المصرى فى مدريد

تصدر عددين فى العام

الاشتراك السنوى : ٨٠ بسيته اسبانية فى العام (٤٠ بسيته عن كل عدد)

أو ٨٠ قرشاً مصرياً أو دولاران ونصف

العنوان : المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، ماتياس مونتيرو رقم ١٤ مدريد ، اسبانيا

العدد الثالث ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م المجلد الأول

طبعت بمطبعة المعهد المصرى فى مدريد

١٩٥٥

مقدمة

لوصية القاضى أبى الوليد الباجى لولديه

ابتدأ الباجى فى وصيته التى نقدم لهـا فى هذا العدد — من مجلة المعهد المصرى بمدريد — بمقدمة قصيرة متناسبة مع حجمها الصغير . . وقد أعرب فيها عن السبب الذى دفعه إلى إنشائها وكتابتها ، كما أنه أعرب فيها بوضوح وجلاء عن المنزلة الاجتماعية والدينية التى كانت لأسلافه ، طمعاً منه فى أن يسير أولاده على نهج أسلافهم وأجدادهم من قبل .

وقد قسم المؤلف وصيته إلى قسمين : القسم الأول تناول فيه الشئون العامة الدين ، وما يتطلبه هذا الدين من واجبـات أو الـتزامات ، وقد جعل المعرفة والعلم أساساً لتلك الواجبات والالتزامات . وقد تناول فى هذا القسم الكلام على نقط كثيرة ، سنقتصر فى هذه المقدمة على ثلاث منها فقط ، لأنها ربما تكون مفيدة لمن تعنيهم الدراسات الأندلسية ، وخصوصاً الناحية العقلية والناحية الفقهية ، والنقط الثلاث هى : (١) ظاهرة اعتناق مسلمى الأندلس للمذهب المالكى ، (٢) دراسة علوم القدامى — أعنى المنطق والفلسفة — (٣) دراسة الفلك والتنجيم .

فأما ما يتعلق بالنقطة الأولى فقد ابتدأ أولا بشرح السياسة التعليمية التى يجب على الطالب تتبعها ، بل نَوَّه بها تنويهاً كبيراً واعتبرها أفضل سياسة فى التعليم ، ويُجمل هذه السياسة فى حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوى الشريف ، والتعرف على ما كان صحيحاً منه وما كان منه غير صحيح ، ودراسة علم أصول الفقه الذى هو أصل لمعرفة القرآن ومعرفة الحديث ، ويوجب على الطالب أن يتدرب تدريباً سليما على معرفة طرق النظر وتصحيح الأدلة وإقامة البرهان .

وفى الناحية الفقهية يفضل مذهب — مالك — على غيره من المذاهب الأخرى ، لأن مالكاً — فى نظره — قد اجتمعت لديه الإمامتان ، أولاهما الإمامة فى الرأى ، وثانيهما الإمامة فى الحديث ، فى حين أنه ليس لأحد ممن تقدم مالكاً أو تأخر عنه هاتان الفضيلتان ، وإنما يوجد من يشاركه فى كثرة المسائل الفقهية ، وذلك كأبى حنيفة والشافعى ، ولكن ليس لأحدهما درجة الإمامة فى الرأى ولا درجة الإمامة فى الحديث[١] . . وهذا النص المذكور فى تلك الوصية يوضح لنا بجلاء سبباً من أهم الأسباب التى حدت بمسلمى الأندلس إلى الاحتفاظ بدراسة مذهب إمام المدينة والعكوف على قراءته وشرحه[٢].

وهذا النص له وجاهته إذا أدخلنا فى حسابنا أن الباجى كان يعيش فى وسط البيئة الأندلسية ، بل كان أندلسياً ، وعضواً بارزاً من أعضاء مشيخة الفقه المالكى فى الأندلس ، فالنص من هذه الناحية له قوته إذ أن صاحبه لم يكن خارجاً عن هذا القطر ، تصل إليه الأخبار عن طريق السماع أو عن طريق الرواية والنقل ، كما هو الحال فى الأخبار الواردة مثلا عن المقدسى وهو بصدد الكلام عن هذا الموضوع . ويزيد من قيمة هذا النص أن الباجى كانت له رحلة طويلة فى المشرق بلغت حوالى الثلاثة عشر عاماً ، قضاها فى الرحلة إلى العواصم الكبرى التى كانت مهداً لتلك الثقافة الاسلامية ، وذلك كالمدينة وبغداد والموصل وفلسطين والقاهرة ، وقد درس فى رحلته هذه على أساتذة منتمين إلى المذهب المالكى ، كما درس على آخرين منتمين إلى المذهبين السائدين فى ذلك الوقت ، ذلك المذهبان هما مذهبا أبى حنيفة والشافعى . . . . على أنه يجب علينا أن نتحوط للأمر ، فلا نحب أن يصل هذا الرأى على علاته دون أن يخضع لقانون المناقشة والجدل ، لأنه قد صدر من هذا العالم فى عصر ملوك الطوائف ،

---

(١) راجع فقرة رقم ١٢ ، ١٣

(٢) هناك نصوص كثيرة متفرقة فى حواشى الكتب عن سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس ، ويمكن الرجوع إليها مثلا فى المقدسى والمقرى — نفح الطيب جـ ٢ ص ٢١٤ ، ٢١٨ ، ط محيي الدين عبد الحميد .

بيد أن مذهب مالك قد دخل الأندلس فى عصر عبد الرحمن الداخل ، وذلك حينما أدخل الغازى بن قيس موطأ إمام المدينة إلى الأندلس .

وأما بالنسبة للدراسات الفلسفية فهو يبدو فيها حذراً ، لا يبيح قراءتها ومطالعتها إلا على سبيل التحقق من بطلانها وعدم صلاحيتها لأن تكون دستوراً أو قانوناً صالحاً ، حتى ولو كان ذلك قائماً على أساس خدمة الدين ، لأن القرآن فيه شفاء للناس ، وفيه غناء كبير عن مثل تلك الدراسات ، وهذه الفكرة تقريباً ، هى الفكرة السُّنِّيَّةِ التى كانت تسود روح العصور الوسطى ، التى لم يكن يسمح فيها بمثل هذه الدراسات إلا لمن نضج عقله وتهذبت فكرته ، وأصبح قادراً على صيانة نفسه ودينه من ضلالات الفلاسفة والمنطقيين ، يقول الباجى مخاطباً أولاده :

« وأحذركما من قراءتها ما لم تقرآ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده وضعف شبهه ، وقلة تحقيقه ، مخافة أن يسبق إلى قلب أحدكما مالا يكون عنده من العلم ما يقوى به على رده ، ولذلك أنكر جماعة العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءة كلامهم لمن لم يكن من أهل المنزلة والمعرفة خوفاً عليهم مما خوفتكما منه . . » ويستمر فى استهجان دراسة هذين العلمين إلى أن يقول : « وقد رأيت بغداد وغيرها من يدعى هذا الشأن مستحقراً مستهجناً مستضعفاً ، لا يناظره إلا المبتدئ ، وكفاك بعلم صاحبه فى الدنيا مرموق مهجور ، وفى الآخرة مدحور مبثور ، وأما مَنْ يتعاطى ذلك من أهل بلدنا (الأندلس) فليس عنده منه إلا إسمه ولا وصل إليه إلا ذكره »[1].

ولكن مع هذا يمكن أن يقال : هل الدراسة الفلسفية والمنطقية كانت منعدمة أو شبه منعدمة فى اسبانيا الاسلامية خضوعاً لرغبة رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بسلطة كبيرة فى ذلك الوقت ؟

---

(١) راجع فقرة رقم ١٤

الجواب عن ذلك أن الفلسفة قد وجدت تربة خصبة فأثمرت ثمراً محموداً، إذ بالرغم من وجود أمثال تلك النصوص نجد نصوصاً أخرى تدل على براعة الأندلسيين وإجادتهم لمثل تلك الدراسات . . . فمثلا يقول أبو محمد على بن حزم الظاهرى فى رسالة له رداً على رسالة أبى على الحسن بن محمد بن أحمد ابن الربيب التميمى القَيْرَوَانى : « وأما الفلسفة فإنى رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى المعروف بالحمار دالة عَلَى تمكنه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبى عبد الله محمد بن الحسن المذحِجِيُّ فى ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحُسْن ، فائقة الجودة ، عظيمة المنفعة » .

وورد فى تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم السابقة ما نصه : « وأما كتب الفلسفة فإمامها فى عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبى ، وله فيها تصانيف جحدها لَمَّا رأى انحراف منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم ، وسجنه بسببها ، وكذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية »[1] . . . وبجانب النصين السابقين الواردين عن ابن حزم وابن سعيد نجد صاعداً الطليطلى يذكر لنا أيضاً من اشتغل بهذا العلم من مدينة طليطلة وجهاتها فيقول : « ومنهم أبو الحسن على بن خلف بن أحمد ، وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال ، وأبو مروان عبدان بن خلف الاستيجى ، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن غالب التهلاكى ، وعيسى بن أحمد ابن العالم ، وابراهيم بن سعيد السهلى الاسطرلابى ، وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال ، فإنه أمهر أهل زماننا بأرصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها ، وأعلمهم بعلم الأزياج ، واستنباط الآلات النجومية »[2] .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٧٦

(٢) شكيب أرسلان ، ج ٢ ص ٣٩

ويذكر المقرى نقلا عن ابن حيان من كتاب « المقتبس » فى ترجمة يحيى ابن الحكم الشاعر الأندلسى الملقب بالغزال ، والمتوفى فى حدود سنة (٢٥٠ هـ) ، أنه كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها[١] . . ومن رسالة الشَّقُنْدِى فى فضل أهل الأندلس ما نصه : « وهل لكم فى النجوم والهندسة والفلسفة مَلِكٌ كالمنتدر ابن هود صاحب سرقسطة ؟ . . فإنه كان آية فى ذلك »[٢] .

وبجانب هؤلاء جميعاً نستطيع أن نقول إنه نبتت شخصيات أخرى — فى بيئات إسلامية وغير إسلامية — كان لها أثر محمود فى هذا الميدان وذلك كابن جيبرول المتوفى سنة (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) وابن باجة المتوفى سنة (١١٣٨ م) ، وابن طفيل المتوفى سنة (١١٨٥ م) ، وابن ميمون المتوفى سنة (١٢٠٤ م) .

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول إنه بالرغم من فرض هذا الحصار الشديد الذى عانت الفلسفة بسببه الكثير من المحن ، قد ظهرت أحياناً فى ثوبها الجميل ، وأخذت حصتها من الظهور والازدهار ، وذلك حينما كان يقدر لها التأييد من ملك أو أمير ، وأحياناً أخرى تنكمش بعيدة عن قصور الخلفاء و بيوت الوزراء ، ولن نذهب بعيداً إذا قلنا أن ظهورها دائماً كان مشوباً بالقلق ، وممزوجاً بالخوف ، إذ أن الفقهاء والعامة من خلفهم كانوا شديدى الحرص على مقاومتها ، والوقوف فى سبيلها ، ولقد حدثت مأساة احراق الكتب الفلسفية والمنطقية أكثر من مرة . فقد ورد مثلا فى نفح الطيب أن المنصور أحرق مكتبة الحكم ابن هشام . وورد عن النباهى فى كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » أن القاضى محمد ابن يَبْقَى بن زَرْب اعتنى بأصحاب ابن مسرة والكشف عنهم ، وأظهر للناس كتاباً حسناً ، وضعه فى الرَّدِّ على أصحابه ، ثم يقول : وفى سنة (٣٥٠ هـ)

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٢١ ، ط. محيي الدين عبد الحميد .
(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ص ١٨٢ ، ط. محيي الدين عبد الحميد .

جئ إليه بأصحاب ابن مسرة ، وجلس أمام باب المسجد ، وأحرق بين يديه جملة كبيرة من كتبهم وهم ينظرون[١] . . .

هذا بالنسبة للنقطتين السابقتين ، أما فيما يتعلق بالنسبة للنقطة الأخيرة — فقد أشرت إليها فيما سبق من اهتمام بعض العلماء بدراستها — فيعتبر الباجي فى وصيته أن مَنْ يعتقد أن هناك تأثيراً للنجوم والأفلاك مِنْ أحداث فى الكون مخالفاً للشريعة الإسلامية ، ويعدُّ مَنْ يتصدى لدراسة هذا العلم من جملة المارقين من الدين ، لأن الاسلام باعتباره ديناً سماوياً يرد جميع الاعتبارات من خلق وإماتة إلى الله وحده لا شريك له . ولكنه مع ذلك يستثنى ما إذا كان نوع تلك الدراسات الفلكية المتعلقة بتعديل الكواكب ، ومعرفة بروجها ومنازلها ، ومعرفة نزول الشمس والقمر ، وطريقة سيرهما ودورانهما ، مردود إلى علم الحساب ، الذى لا حرج فى تعلمه . بل هو مِنْ قسم المباحات المستحسنة ، وشاهده من القرآن الكريم قول الله تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصلُ الآيات لقوم يؤمنون »[٢] .

وهذا الاستثناء الذى رأيناه للقاضى أبى الوليد الباجى السُّنِّىِّ المالكى نرى مثله لفقيه آخر كان معاصراً له ، ذلك الفقيه هو أبو محمد على بن حزم الذى كان من عشاق مدرسة داود بن على الظاهرى ، والذى صار فيما بعد أستاذاً للمدرسة الظاهرية فى المغرب الاسلامى ، إذ كان يعتقد أن دراسة هذا العلم — أعنى علم الفلك — من حيث معرفة مطالع الكواكب وارتفاعها واختلاف مراكز أفلاكها هى دراسة صحيحة ومستحسنة ، لأن فى دراستها ما يساعد على معرفة الخالق وحسن

---

(١) النباهى : المرقبة العليا ص ٧٨

(٢) راجع فقرة رقم ١٧

تدبيره وإتقان صنعته ، وتعين الناظر فيها إلى معرفة القبلة وأوقات الصلاة ومعرفة الأهلة لفرض الصوم والفطر . . الخ[١] .

أما القسم الثانى من أقسام الوصية فيشتمل على وصايا ومواعظ خلقية كريمة رسم فيهـا الخطوط الرئيسية للعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبينه وبين إخوانه وعشيرته وجيرانه ، بل بينه وبين الدولة والسلطان ، مِنْ أجل هذا كان لتلك الوصية أثر كبير فى الوسط العلمى الذى كان يعيش فيه المؤلف ، فلم تكن — فيما يبدو — مقصورة على ولديه الذين أنشئت من أجلهما تلك الوصية ، بل أخذت سبيلهـا إلى قلوب تلاميذه الذين احتلوا مكان الأستاذ ، تقرأ فى حلقات الدروس ، ويحاضر بها فى المجالس العلمية ، ومن الأدلة على ذلك ما يرويه لنا ابن الأبار أن أبا اسحاق بن جمعة القاضى كان يحدث بوصية الباجى لابنيه عنه[٢] ، ويحدثنا أيضاً أن ابراهيم بن أحمد بن خلف بن جماعة بن مهدى قاضى دانية ثم قاضى شاطبة قد كانت له رواية عن أبى على الصدفى (تلميذ الباجى) وناوله أبو على المذكور وصية أبى الوليد الباجى[٣] .

ونحن من جانبنا نرى أن هذا التـأثير لم يكن مقصوراً على أولاده أو على تلاميذه فحسب ، بل تعدى ذلك بصورة واضحة إلى عصور متأخرة عن العصر الذى كان يعيش فيه الباجى ، من ذلك مثلا ما نشاهده فى وصية الوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفى (سنة ٧٧٦ هـ) لأولاده من مشابهة كبيرة واتحاد تام ، فابن الخطيب قد ابتدأ وصيته بما ابتدأ الباجى به وصيته ، وختمها بما ختم به الباجى وصيته ، واستعمل الوزير — تقريباً — نفس الآيات ونفس الأحاديث التى استعملها الفقيه ، وطرق نفس الموضوعات التى طرقها ، ووضع قدمه حيث وضعها ، وكل ما هنالك من فروق — إذا كانت هناك فروق تذكر — أن

---

(١) ابن حزم : الفصل جـ ٥ ص ٣٧

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٩١

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٦٢ ، ٦٣

أسلوب الفقيه مرسل غير مسجوع ، بينما جرى الوزير على عاداته تقريباً على السجع المتكلف ، ولو شئنا أن ننحى سجعاته جانباً ما أخالنا قد ظفرنا بشئ جديد فى وصية هذا الوزير ، وما علينا إلا نضرب الأمثلة شاهدة على ذلك ليتبين للقارئ صحة ما ذهبنا إليه بوضع فقرات من كلتا الوصيتين ، وسنشير بالحرف (ب) للباجى ، وبالحرف (ل) للسان الدين ، وفيما يلى بعض تلك الفقرات :

ب — فلا يستزلكما عنه شئ من أمور الدنيا (أى الدين) وابذلا دونه أرواحكما ، فكيف بدنياكما ، فإنه لا ينفع خير بعده الخلود فى النار ، ولا يضر ضر بعده الخلود فى الجنة « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »[١] .

ل — « ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وقد علت شرائعه (يعنى الدين) وراع الشكوك رائعه ، فلا يستزلكم الدنيا عن الدين ، وابذلا دونه النفوس فِعْلَ المهتدين ، فلن ينفع متاع بَعْدَ الخلود فى النار أبد الآبدين ، ولا يضر مفقودٌ مع الفوز بالسعادة ، والله أصدق الواعدين[٢] .

ب — ثم الحج إلى بيت الله الحرام مَن استطاع إليه سبيلا ، فهو فرض واجب ، وقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « الحج المبرور ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ، ثم الجهاد فى سبيل الله إن كانت بكما قوة عليه ، أو عون مَن يستطيع إن ضعفتما عنه ، فهذه فرائض الإسلام ، وإن كان الايمان حافظاً عليها وسابقاً إليها[٣] .

ل — والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدره فيما فرض عن

---

(١) راجع فقرة رقم ٣

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١٠ ص ٢٥١

(٣) راجع الفقرات رقم ٩ ، ١٠

ربه وسَنَّه ، وقال : ليس له جزاء عند الله إلا الجنة ، ويلحق بذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى إن كانت بكما قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيره ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا مَنْ يستطيعه ، هذه عُمُدُ فرائض الاسلام وفروضه ونقوده ومهوره[1] .. الخ

ب — واعلما أنكما إنما تصلان إلى آداء هذه الفرائض ، والإتيان بما يلزمكما منها ، مع توفيق الله لكما بالعلم الذى هو أصل الخير ، وبه يتوصل إلى البِر..... ويستطرد فى سرد الآيات الدالة على الحث على طلب العلم إلى أن يقول : والعلم سبيل لا يفضى بصاحبه إلا إلى السعادة ، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة ، قليله ينفع ، وكثيره يُعْلى ويرفع كنز يزكو على كل حال ، ويكثر مع الانفاق ولا يغصبه غاصب ، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب ، فاجتهدا فى طلبه ، واستعذبا التعب فى حفظه ، والسهر فى درسه . . . إلى أن يقول : والعلم ولاية لا يعزل عنها صاحبها ، ولا يعرى من جمالها لابسها ، وكل ذى ولاية وإن جَلَّت ، وحرمة وإن عظمت ، إذ خرج عن ولايته ، أو زال عن بلدته ، أصبح مِنْ جاهه عارياً ، وَمِنْ حاله عاطلا غير صاحب العلم[2] .. الخ

ل — واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب . . ثم يستطرد هذا أيضاً فى ذكر محاسن العلم والاستدلال بالآيات إلى أن يقول : (والعلم) هو السبيل فى الآخرة إلى السعادة ، وفى الدنيا إلى المنحلة عادة ، والذخر الذى قليله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، مَنْ لم ينله فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جَمَّ مَالُه ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فلتمسوه لبنيكم ، واستدركوا منه ما

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١٠ ص ٢٥٤

(٢) راجع الفقرة رقم ١١

خرج مِنْ أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودرسه ، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم مِنْ تعَب من جرَّاه ، وسهر يهجر الجفن له كراه ، تعقدوا لهم وِلاَيَةَ عِزٍّ لا تعزل ، وتحلوهم مثابة رفعة لا يحط فارعها ولا يستنزل (١) .

ب — وأفضل العلوم علم الشريعة ، وأفضل ذلك لمن وفق أن يجود قراءة القرآن ، ويحفظ حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — ويعرف صحيحه من سقيمه ، ثم يقرأ أصول الفقه ، فيتفقه فى الكتاب والسنة ، ثم يقرأ كلام الفقهاء ، وما نُقِل من المسائل عن العلماء ، ويدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج ، فهذه الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، ومَنْ قصر عن ذلك فليقرأ بعد تحفظ القرآن ورواية الحديث على مذهب مالك — رحمه الله — فهى إذا انفردت أنفع من سائر ما يقرأ فى باب التفقه (٢) .

ل — وخير العلوم علم الشريعة ، وما نجم بمنابتها المريعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنما هى آلات لغير . وأسباب إلى خير منها وخير فمن كان قابلا للازدياد ، وألفى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ثم حفظ الحديث ، ومعرفة صحيحه من سقيمه ، ثم الشروع فى أصول الفقه فهو العلم العظيم المنة ، المهدى إلى كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة ، وهذه هى الغاية القصوى فى الملة ، ومَنْ قصر إدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التى هى أسمى ، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه (٣) .

ب — وعليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله ، وانهيا عن المنكر واجتنبا فعله ، وأطيعا مَنْ وَلاه الله أمركما ما لم تدعيا إلى معصية فيجب أن تمتنعا منها ،

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١٠ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥

(٢) راجع فقرة رقم ١٢

(٣) المقرى : نفح الطيب ، ج ١٠ ص ٢٥٥

وتبذلا الطاعة فيما سواها ، وعليكما بالصدق فإنه زين ، وإياكما والكذب فإنه شين ، ومن شهر بالصدق فهو ناطق محمود ، ومن عرف بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم ، وأقل عقوبات الكذاب ألا يقبل صدقه ، ولا يتحقق حقه[١] . . الخ

ل — وأطيعوا أمْرَ من ولاه الله تعالى من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفتنة جمرا ، ولا تداخلو فى الخلاف زيداً ولا عمراً ، وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومَن أكثر مِن شيءٍ عُرِفَ به .

وإياكم والكذب ، فهو العورة التى لا توارى ، والسوأة التى لا يرتاب فى عارها ولا يتمارى ، وأقل عقوبات الكذاب بين يدى ما أعد الله له من العذاب أن لا يقبل صدقه إذ صدق ، ولا يُعوَّل عليه إن كان بالحق نطق[٢] .

ب — وإياكما والعون على سفك دم بكلمة ، أو المشاركة فيه بلفظة ، فلا يزال الإنسان فى فسحة من دينه ما لم يغمس يده أو لسانه فى دم إمرىءٍ مسلم . قال الله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً »[٣] . . الخ

ل — والله الله أن تعينوا فى سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان فى فسحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير منسدة ، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه ، ويمس الدم الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى فى كتابه الذى هدى به سنناً قويماً ، وجلى من الجهل والضلال ليلا بهيما « ومن يقتل مؤمناً متعمداً[٤] . . الخ »

وبعد . . فإنى أعتقد بعد كل ما تقدم أن البرهان واضح تمام الوضوح فى تأثر لسان الدين بالباجى تأثراً كبيراً ، رغم أن الباجى توفى سنة (٤٧٤ هـ) وولد

---

(١) فقرة رقم ١٥
(٢) المقرى : جـ ١٠ ص ٢٥٦
(٣) فقرة رقم ١٥
(٤) المقرى : جـ ١٠ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

لسان الدين سنة (٧١٣ هـ) وهو فرق فى الزمان ليس بالقليل . . ولو شئنا أن نتتبع الوصيتين فقرة فقرة ، لما ظفرنا — كما قلنا من قبل — بشئ جديد فى الأغراض والأهداف ، اللهم إلا إذا كان ذلك بتقديم جملة على جملة ، أو صناعة لفظية كما هو صنيع ابن الخطيب ، وآثرت ألا أطيل الأمثلة على القارئ ، وكلتا الوصيتين تحت يده فليرجع إليهما إن أحب .

وما دمنا قد وصلنا إلى ابن الخطيب وتأثره بالباجى ، فهناك ملحظ جميل يجدر بنا أن نذكره فى هذا المكان ، لأنه — فيما أظن — مرتبط أيضاً بموضوعنا أوثق ارتباط . ذلك أن صديقى وزميلى الدكتور مختار العبادى فى بحث له حول (مادية ابن الخطيب)[1] إنتهى فيه إلى بعد غور الوزير وسداد نظره فى سياسته المالية التى جرى عليها ، لأن نظرته إلى هذا الوطن (غرناطة) كانت مشوبة بالقلق والارتياب والشكوك ، فتطلع إلى مكان آخر يصلح لأن يكون موضعاً لاستثمار الأموال ، وقد إعتمد الدكتور مختار فى بحثه على بعض الوثائق التي تؤيد ما ذهب إليه ، كما استند أيضاً إلى عبارة وردت فى وصيته لأولاده ، والعبارة نصها كما يلى : « ومَن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ، الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العقار » . . وأحب أن أضيف إلى رأى زميلى رأياً آخر ، هو أن تلك السياسة المادية لم تكن لابن الخطيب فحسب ، أو بعبارة أدق لم تكن سياسة جديدة أبدعها هنا الوزير ، لأن نص العبارة موجود تقريباً فى وصية الباجى ، والعبارة هى : « ومن رزق منكما مالا فلا يجعل فى الأصول إلا أقله » وما أظن كلمة الأصول عند الباجى وكلمة العقار عند ابن الخطيب أنهما يقعان إلا على معنى واحد ، وما أظن أيضاً إلا أن الظرف السياسى الذى كانا يعيشان فيه — رغم بعدهما فى الزمن — هو

---

(١) راجع مقال الدكتور العبادى فى مجلة « لسان الدين » تحت عنوان « لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصادية » — العددان التاسع والعاشر سبتمبر اكتوبر ١٩٥٤

الذى أملى عليهما وعلى أضرابهما تلك السياسة المالية التى لاحظها زميلى فى بحثه .

أما بالنسبة للشكل الظاهرى لوصية الباجى فهى مخطوطة محفوظة بمكتبة الأسكوريال تحمل رقم ٧٣٢ ، وهى ضمن مجلد يحتوى على عدة رسائل ، وهى الرسالة الرابعة من هذا المجموع ، وهذه المخطوطة تقع فى اثنا عشرة ورقة من الحجم المتوسط وقد كتبت بخط مغربى وبمداد أسود ، سهل القراءة ، وقد كتبت هذه الرسالة بعد وفاة الباجى بـ ٢٧٥ سنة فقد ختمها الناسخ بقوله :

كمل المجموع بحمد الله تعالى وحسن عونه
وذلك فى ثانى شهر حجة مختتم عام
تسعة وأربعين وسبعمائه

وكتب على الصحيفة التى تحمل عنوان الوصية البيتين الآتيين :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ثم انتهى عما أتاه واقترف
لقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وصية الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبى الوليد الباجى
نفعنا الله به ورحمه ، لولديه رحمهم الله أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو الوليد الباجى رضى الله عنه ورحمه .

(١) يابَنِيَّ هداكما الله وأرشدكما ووفقكما وعصمكما ، وتفضل عليكما بخير الدنيا والآخرة ، ووقاكما محذورها برحمته ، انكما لما بلغتما الحَدَّ الذى قَرُبَ فيه تَعيّنُ الفروض عليكما ، وتوجه التكليف إليكما ، وتحققت أنكما قد بلغتما حَدَّ مَن يفهم الوعظَ ويتبين الرشدَ ويصلح للتعليم والعلم ، لزِمَنى أن أقدم إليكما وصيتى ، وأظهر إليكما نصيحتى ، مخافةَ أن تخترمنى منيةٌ ولم أبلغ مباشرة تعليمكما وتدريبكما وإرشادكما وتفهيمكما . فإن أنسأ الله تعالى فى الأجل ، فسيتكرر النصح والتعليم ، والإرشاد والتفهيم . « وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلون[1] » بيده قلوبكما ونواصيكما ، وإن حال بينى وبين ذلك ما أتوقعه وأظنه من اقتراب الأجل وانقطاع الأمل ، ففيما أرسمه من وصيتى ، وأبينه من نصيحتى ، ما إن عملتما به ثَبتُّما على منهاج السلف الصالح ، وفزتما بالمتجر الرابح ، ونلتما خير الدنيا والآخرة ، وأستودعُ الله دينكما ودنياكما ، وأستحفظه معاشكما ومعادكما ، وأفوض إليه جميع أحوالكما ، وهو (١٧٤) حسبى فيكما ونعم الوكيل . واعلما أنه لا أحَدَ أنصحَ منى لكما ، وأشفق منى عليكما ، وأنه ليس فى الأرض من تطيب نفسى أن يفضل عَلَىّ غيركما ، ولا أرفع حالا فى أمر الدين والدنيا سواكما . وأقل ما يوجب ذلك عليكما أن تصيخا إلى قولى ، وتتعظا بوعظى ، وتتفهما إرشادى ونصحى ، وتتيقنا أنى لم أنهكما عن خير ، ولا أمرتكما بشر ، وتسلكا السبيل التى نهجتها ، وتمتثلا الحال التى مَثّلتُها .

---

(١) سورة يوسف (١٢) آية رقم ٦٧

(*) قام الدكتوران جمال محرز ومحمود مكى بمراجعة ما أعده السيد الدكتور جودة هلال للنشر على الأصل ، واستدركا ما كان قد فاته ، وصححا بعض القراءات .

(٢) واعلما أننا أهل بيت لم نخل بفضل الله ما انتهى إلينا منه من صلاح وتدين ، وعفاف وتصاون ، فكان بنو أيوب بن وارث عفا الله عنا وعنهم أجمعين ، جدنا سعد ، ثم كان بنو سعد سليمان وخلف وعبد الرحمن واحمد ، وكان أوفر الصلاح والتدين والتبرع والتعبد فى جـــدكم خلف ، كان مع جاهه وحاله واتساع دنياه منقبضاً عنها ، متقللا منها ، ثم أقبل على العبادة والاعتكاف إلى أن توفى — رحمه الله — ثم كان بنو خلف ، عَمَّا كما عليٌّ وعمر وأبوكما سليمان وعما كما محمد وابراهيم ، فلم يكن فى أعمامكما إلا مشهور بالحج والجهاد ، والصلاح والعفاف حتى توفى منهم على ذلك عفا الله عنا وعنهم ، وكأننى لاحق بهم ، ووارد عليهم ، ويصير ركامى إليكما ، فلا تأخذا غير سبيلهم ، ولا ترضيا غير أحوالهم ، فإن استطعتما الزيادة فلأنفسكما تمهدان ، ولها تبنيان ، وإلا فلا تقصرا عن حالهم .

(٣) وأول ما أوصيكما (٧٤ ب) به ما أوصى به ابراهيم بنيه ويعقوب « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتَنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ »(١) وأنها كما عما نهى عنه لقمان لإبنه وهو يعظه « يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »(٢) .. وأؤكد عليكما فى ذلك وصيتى وأكررها حرصاً على تعلقكما وتمسككما بهذا الدين الذى تفضل الله تعالى علينا به ، فلا يستزلكما عنه شئ من أمور الدنيا ، وابذلا دونه أرواحكما ، فكيف بدنياكما ، فإنه لا ينفع خير بعده الخلود فى النار ، ولا يضر ضُرٌّ بعده الخلود فى الجنة « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ(٣) » فإن متما على هذا الدين الذى أصطفاه الله واختاره وحرم ما سواه ، فأرجو أن نلتقى حيث لا نخاف فرقة ، ولا نتوقع إزاله ، ويعلم الله تعالى شوقى إلى ذلك وحرصى عليه ، كما يعلم إشفاقى من أن تزل بأحدكما قدم أو تعدل به فتنة ، فيحل عليه من سخط الله تعالى ما يحله دار البوار ،

---

(١) سورة البقرة (٢) آية رقم ١٣٢
(٢) سورة لقمان (٣١) آية رقم ١٣
(٣) سورة آل عمران (٣) آية رقم ٨٥

ويوجب له الخلود فى النار ، فلا يلتقى مع المؤمنين من سلفه ، ولا ينفعه الصالحون من آبائه « يَوْمَ لاَ يُغْنِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُور »(١) .

(٤) وتنقسم وصيتى لكما قسمين : فقسم فيما يلزم من أمر الشريعة أبين لكما منه ما يجب معرفته ويكون فيه تنبيه على ما بعده . وقسم فيما يجب أن تكونا عليه فى أمر دنياكما (١٧٥) وتجريان عليه بينكما .

(٥) فأما القسم الأول : فالإيمان بالله عز وجل ، وملائكته وكتبه ورسله ، والتصديق بشرائعه ، فإنه لا ينفع مع الإخلال بشئ من ذلك عمل ، والتمسك بكتاب الله تعالى جَدُّه ، والمثابرة على تحفظه وتلاوته ، والمواظبة على التفكر فى معانيه وآياته ، والامتثال لأوامره ، والانتهاء عن نواهيه وزواجره ، روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله تعالى وسنتى عضواً عليها بالنواجذ . . . وقد نصح لنا — صلى الله عليه وسلم — وكان بالمؤمنين رحيما ، وعليهم مشفقاً ، ولهم ناصحاً ، فاعملا بوصيته ، وأقبلا من نصحه ، وأثبتا فى أنفسكما المحبة له ، والرضى بما جاء به ، والاقتداء بسنته والانقياد له والطاعة لحكمه والحرص على معرفة سنته وسلوك سبيله ، فإن محبته تقود إلى الخير ، وتنجى من الهلكة والشر ، وأشربا قلوبكما محبة أصحابه أجمعين ، وتفضيل الأئمة منهم الطاهرين ، أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم . والزما أنفسكما حُسْن التأويل لما شجر بينهم ، واعتقاد الجميل فيما نُقِل عنهم . فقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه . فمن لا يبلغ نصيف مُدِّهِ مثل أُحُدٍ ذهباً فكيف يُوَازَنُ فضله أو يُدْرَكُ شأوه ؟ وليس (٧٥ ب) منهم — رضى الله

---

(١) سورة آل عمران (٣) آية رقم ٨٥

عنهم — إلا من أنفق الكثير . ثم تفضيل التابعين ومن بعدهم من الأئمة والعلماء — رحمهم الله — والتعظيم لحقهم ، والاقتداء بهم والأخذ بهديهم ، والاقتفاء لآثارهم ، والتحفظ لأقوالهم ، واعتقاد إصابتهم .

(٦) وإقام الصلاة فإنها عمود الدين ، وعماد الشريعة ، وآكد فرائض الملة ، فى مراعاة طهارتها ، ومراقبة أوقاتها ، وإتمام قراءتها ، وإكمال ركوعها وسجودها ، واستدامة الخشوع فيها ، والإقبال عليها ، وغير ذلك من أحكامها ، وآدابها فى الجماعات والمساجد فإن ذلك شعار المؤمنين ، وسنن الصالحين ، وسبيل المتقين .

(٧) ثم أداء زكاة المال ، لا تؤخر عن وقتها ، ولا يبخلُ بكثيرها ، ولا يغفل عن يسيرها — ولتخرج من أطيب جنس وبأوفى وزن ، فإنَّ الله تعالى أكرم الكرماء ، وأحق من اختير له ، ولتعط بطيب نفس ، وتيقن أنها بركة فى المال وتطهيرٌ له ، وتدفع إلى مستحقها دون محاباة ولا متابعة هوى ولا هوادة .

(٨) ثم صيامُ رمضان فإنه عبادة السر وطاعة الرَّب ، ويجب أن يزاد فيه من حفظ اللسان ، والاجتهاد فى صالح العمل ، والتحفظ من الخطأ والزلل ، ويراعى فى ذلك لياليه وأيامه ، ويتبع صيامه قيامه وقد سُنَّ فيه الاعتكاف .

(٩) ثم الحج إلى بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلا ، فهو فرض واجب ، وقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : الحج المبرور ليس له جزاء عند الله (١٧٦) إلا الجنة .

(١٠) ثم الجهاد فى سبيل الله إن كانت بكما قوة عليه ، أو عون من يستطيع إن ضعفتما عنه ، فهذه عُمُدُ فرائض الإسلام وإن كان الإيمان حافظاً عليها ، وسائقاً إليها ، تحوزا الخير العظيم ، وتفوزا[1] بالأجر الجسيم ، ولا تضيعا حقوق الله فيها وأوامره بها ، فتهلكا مع الخاسرين ، وتندما مع المفرطين .

---

(١) وردت فى الأصل تحوز وتفوز بغير ألف .

(١١) واعلما أنكما إنما تصلان إلى اداء هذه الفرائض ، والإتيان بما يلزمكما منها ، مع توفيق الله لكما بالعلم الذى هو أصل الخير ، وبه يتوصل إلى البرّ ، فعليكما بطلبه ، فإنه غنى لطالبه ، وَعِزٌّ لحامله ، وهو مع هـذا السبب الأعظم إلى الآخرة ، به تُجْتَنَبُ الشبهات وتصح القربات ، فكم من عامل يبعده عمله من ربه ، ويكتب ما يتقرب به من أكبر ذنبه . قال الله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً »[١] . وقال تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ »[٢] . وقال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[٣] . وقال تعالى : « يَرْفَعُ [الله] الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »[٤] . . والعلم سبيل لا يفضى بصاحبه إلا إلى السعادة ، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة ، قليله ينفع ، وكثيره يعلى ويرفع ، كنز يزكو على كل حال ، ويكثر مع الانفاق ، ولا يغصبه غاصب ، ولا يُخَاف عليه سارق ولا محارب ، فاجتهدا فى طلبه ، واستعذبا التعب (٧٦ ب) فى حفظه ، والسَّهَرَ فى درسه ، والنَّصَبَ الطويل فى جمعه ، وواظبا على تقييده وروايته ، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته ، وانظرا أى حالة من أحوال طبقات الناس تختاران ، ومنزلة أى صنف منهم تؤثران[٥] ، هل تريان أحداً أرفع حالا من العلماء ، وأفضل منزلة من الفقهاء ؟ . . يحتاج إليهم الرئيس والمرءوس ، ويقتدى بهم الوضيع والنفيس — يرجع إلى أقوالهم فى أمور الدنيا وأحكامها وصحة عقودها وبياعاتها ، وغير ذلك من تصرفاتها ، وإليهم يلجأ

---

(١) سورة الكهف (١٨) آية رقم ١٠٣
(٢) سورة الزمر (٣٩) آية رقم ٩
(٣) سورة فاطر (٣٥) آية رقم ٢٩
(٤) سورة المجادلة (٥٨) آية رقم ١١ ، سقط لفظ [الله] من الأصل . (التحرير)
(٥) وردت فى الأصل يؤثران .

فى أمور الدين ، وما يلزم من صلاة وزكاة وصيام وحلال وحرام ، ثم مع ذلك السلامـة من التبعات ، والحظوة عند جميع الطبقات — والعلم ولاية لا يعزل عنها صاحبها ، ولا يعرى من جمالهـا لابسها . وكل ذى ولاية وإن جلت ، وحرمة وإن عظمت ، إذا خرج عن ولايته أو زال عن بلدته أصبح من جاهه عارياً ، ومن حاله عاطلا غـير صاحب العلم ، فإن جاهه يصحبه حيث سار ، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار ، ويبقى بعده فى سائر الأعصار .

(١٢) وأفضل العلوم علم الشريعة ، وأفضل ذلك لمن وفِّق أن يجوِّد قراءة القرآن ، ويحفظ حديث النبى — صلى الله عليه وسلم — ويعرف صحيحه من سقيمه ، ثم يقرأ أصول الفقه ، فيتفقه فى الكتاب والسنة ، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء ، ويدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج ، فهذه الغاية القصوى (١٧٧) والدرجة العليا .

(١٣) ومن قصَّر عن ذلك فليقرأ بعد تحفظ القرآن ورواية الحديث المسائل على مذهب مالك — رحمه الله — فهى إذا انفردت أنفع من سائر ما يقرأ مفردا فى باب التفقه ، وإنما خصصنا مذهب مالك — رحمه الله — لأنه إمام فى الحديث وإمام فى الرأى وليس لأحد من العلماء ممن انبسط مذهبه ، وكثرت فى المسائل أجوبته ، درجة الإمامة فى المعنيين ، وإنما يشاركه فى كثرة المسائل وفروعها ، والكلام على معانيها وأصولها أبو حنيفة والشافعى ، وليس لأحـدهما إمامة فى الحديث ولا درجة متوسطة .

(١٤) وإياكما وقراءة شيء من المنطق وكلام الفلاسفة فـإن ذلك مبنى على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة . وأحذركما من قراءتها ما لم تقرآ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده وضعف شبهه وقلة تحقيقه ، مخافة أن يسبق إلى قلب أحدكما ما لا يكون عنده من العلم ما يقوى به على رده ، ولذلك أنكر جماعة العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءة كلامهم لمن لم يكن من أهل المنزلة والمعرفة به خوفاً عليهم مما خوفتكما منه ، ولو كنت أعلم أنكما تبلغان

منزلة المَيْزِ والمعرفة والقوة على النظر والمقدرة ، لحضتكما على قراءته ، وأمرتكما بمطالعته ، لتحققا ضعفه وضعف المعتقد له ، وركاكة المغتر به ، وأنه من أقبح (٧٧ ب) المخاريق والتمويهات ، ووجوه الحيل والخزعبلات التى يغتر بها من لا يعرفهـــا ، ويستعظمها من لا يميزها ، ولذلك إذا حقق من يعلم عند أحد منهم وجده عارياً من العلم بعيداً عنه ، يدعى أنه يكتم علمه وإنما يكتم جهله ، وهو قيم عليه ، ويروم أن يستعين به وهو يعين عليه . وقد رأيت ببغداذ وغيرهـا منْ يدَّعى منهم هذا الشأن مستحقراً مستهجناً مستضعفاً لا يناظره إلا المبتدئ . وكيفاك بعلم صاحبه فى الدنيـا مرموق مهجور ، وفى الآخرة مدحور مبثور . وأما من يتعاطى ذلك من أهل بلدنا فليس عنده منه إلا اسمه ، ولا وصل إليه إلا ذكره .

(١٥) وعليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله ، وانهيا عن المنكر واجتنبا فعله ، وأطيعا من ولاه الله أمركما ما لم تدعيا إلى معصية فيجب أن تمتنعا منها وتبذلا الطاعة فيما سواها . وعليكما بالصدق فإنه زين ، وإياكما والكذب فإنه شين ، ومن شُهِرَ بالصدق فهو ناطق محمود ، ومن عُرف بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم ، وأقل عقوبات الكذاب ألا يقبل صدقه ولا يتحقق حقه ، وما وصف الله تعالى أحداً بالكذب إلا ذامّاً له ، ولا وصف الله تعالى أحداً بالصدق إلا مادحاً له ومرفعاً به . وعليكما بأداء الأمانة ، وإياكما والإلمام بالخيانة ، أديا الأمانة إلى من ائتمنكما ، ولا تخونا من خانكما . «وأوفيا بالعهد (١٧٨) إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلاً»[1] . . أوفيا الكيل والوزن ، فإن النقص فيه مقت ، لا ينقص المال ، بل ينقص الدين والحال . . وإياكما والعونَ على سفك دَمٍ بكلمة ، أو المشاركة فيه بلفظة ، فلا يزال الإنسان فى فسحة من دينه ما لم يغمس يده

---

(١) سورة الإسراء (١٧) آية رقم ٣٤

أو لسانه فى دم امرئ مسلم ، قال الله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً »(١) . . واجتناب الزنا من أخلاق الفضلاء ، ومواقعته عار فى الدنيا وعذاب فى الأخرى ، قال الله تعالى : « وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً »(٢) . . وإياكما وشرب الخمر فإنها أُمُّ الكبائر والجرية على المآثم ، وقد حرمها الله تعالى فى كتابه العزيز فقال عَزَّ من قائل : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ »(٣) . . وحسبكما بشئ يذهب العقل ويفسد اللب ، وقد تركها قوم فى الجاهلية تكرُّماً ، فإياكما ومقاربتها والتدنس برجسها ، وقد وصفها الله تعالى بذلك وقرنها بالأنصاب والأزلام ، فقال عز مِنْ قائل : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٤) . فبين تعالى أنها من عمل الشيطان ووصفها بالرجس ، وقرن الفلاح باجتنابها ، فهل يستجيز عاقل بصدق البارى فى خبره — تبارك اسمه — ويعلم أنه (٧٨ ب) أراد الخير لنا فيما حذرنا عنه منها أن يقربها [ ](٥) حين نهاه ، وإياكما والربا ، فإن الله تعالى قد نهى عنه ، وتوعد بمحاربة من لم يتب منه ، قال عز من قائل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ »(٦) وقال تعالى : « يَمْحَقُ اللهُ

---

(١) سورة الإسراء (١٧) آية رقم ٣٢
(٢) سورة الإسراء (١٧) آية رقم ٣٠
(٣) سورة المائدة (٥) آية رقم ١٩
(٤) سورة المائدة (٥) آية رقم ١٠
(٥) توجد عنها كلمة غير مقروءة لتلف فى الصحيفة .
(٦) سورة البقرة (٢) آية رقم ٢٧٨

الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقات »[١] . . ولا تأكلا مال أحد بغير حق ، وإياكما ومال اليتيم ، فقد قال عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً »[٢] . . وعليكما بطلب الحلال واجتناب الحرام فإن عدمتما الحلال فالجأ إلى المتشابه . وإياكما والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والظالم مذموم الخلايق مبغض إلى الخلائق . وإياكما والنميمة ، فإن أول من يمقت عليها مَن تُنقَل إليه ، وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ[٣] . وإياكما والحسد ، فإنه داء يهلك صاحبه ، ويعطب تابعه . وإياكما والفواحش ، فإن الله تعالى حرم ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق . وإياكما والغيبة فإنها تحبط الحسنات ، وتكثر السيئات ، وتبعد من الخالق ، وتبغض إلى المخلوق . وإياكما والكبر فإن صاحبه فى مقت الله متقلب ، وإلى سخطه منقلب ، وإياكما والبخل ، فإنه لا داء أدوأ منه ، لا تسلم عليه ديانة ، ولا تتم معه سيادة . وإياكما ومواقف الخزى وكل ما كرهتما أن يظهر عليكما فاجتنباه ، وما علمتما أن الناس يعيبونه فى الملأ فلا تأتياه فى الخلاء .

(١٦) فإن بلغ أحدكما أن يسترعيَه الله أمةً بحكم أو فتوى فليمتثل العدل جَهْدَه ، ويجتنب الجور وغدره ، فإن الجائر مضاد لله فى حكمه ، كاذب عليه فى خبره مغير بشريعته ، مخالف له فى خليقته ، قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزل اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون »[٤] . وقد روى أن الخلق كلهم عيال الله وان أحب الخلق إلى الله أحوطهم لعياله ، وروى ما امرىء استرعى رعية فلم

---

(١) سورة البقرة (٢) آية رقم ٢٧٦
(٢) سورة النساء (٤) آية رقم ١٠
(٣) قتات = نمام للحديث وناقل له .
(٤) سورة المائدة (٥) آية رقم ٤٧

يحطها بنصيحة إلا حرم الله تعالى عليه الجنة . وإياكما وشهادة الزور فإنها تقطع ظهر صاحبها ، وتفسد دين متقلدها ، وتخلد قبيح ذكره — وأول من يمقته وينم عليه المشهود له ، وإياكما والرشوة فإنها تعمى عين البصيرة ، وتحط قدر الرفيع . وإياكما والأغانى فإن الغناء ينبت الفتنة فى القلب ويولد خواطر السوء فى النفس . وإياكما والشطرنج والنرد فإنه شغل البطالين ، ومحاولة المترفين ، يفسد العمر ويشغل عن الفرض ، ويجب أن يكون عمركما أعز عليكما وأفضل عندكما من أن تقطعاه بمثل هذه السخافات التى لا تجدى ، وتفسداه بهذه الحماقات التى تَضُرُّ وتردى . وإياكما والقضاء بالنجوم والتكهن فإن ذلك (٧٩ ب) لمن صدقه مخرج عن الدين ومدخل له فى جملة المارقين .

(١٧) وأما تعديل الكواكب وتبيين أشخاصها ومعرفة أوقات طلوعها وغروبها وتعيين منازلها وبروجها ، وأوقات نزول الشمس والقمر بها ، وترتيب درجاتها للاهتداء به ، وتعرف الساعات وأوقات الصلوات بالظلال وبها ، فإنه حسن مدرك ذلك كله بعلم الحساب مفهوم ، قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »[1] . وقال عز من قائل : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »[2] .

(١٨) وأما القسم الثانى مما يجب أن تكونا عليه وتتمسكا به ، فأن يلتزم كل واحد منكما لأخيه الإخلاص والإكرام ، والمراعاة فى السر والعلانية ، والمراقبة فى المغيب والمشاهدة ، وليلزم أكبركما لأخيه الإشفاق عليه ، والمسارعة إلى كل ما يحبه ، والمعاضدة فيما يؤثره ، والمسامحة لكل ما يرغبه ، ويلتزم

---

(١) سورة الأنعام (٦) آية رقم ١٧

(٢) سورة يونس (١٠) آية رقم ٥

أصغركما لأخيه تقديمه عليه ، وتعظيمه فى كل أمر بالرجوع إلى مذهبه ، والاتباع له فى سره وجهره ، وتصويب قوله وفعله ، وإن أنكر منه فى الملأ أمراً يريده ، أو ظهر إليه خطأ فيما يقصده ، فلا يظهر إنكاره عليه ، ولا يجهر فى الملأ بتخطئته ، وليبين له ذلك على انفراد منهما ، ورفق من قولهما ، فإن رجع إلى الحق وإلا فليتبعه على (١٨٠) رأيـــه فإن الذى يدخل عليكما من الفساد باختلافكما أعظم مما يحذر من الخطأ مع اتفاقكما ما لم يكن الخطأ فى أمر الدين — فإن كان فى أمر الدين فليتبع الحق حيث كان ، وليثابر على نصح أخيه وتسديده ما استطاع ولا يحل يده عن تعظيمه وتوقيره ، ولا يؤثر أحدكما على أخيه شيئـاً من عرض الدنيا ، فيخل بأخيه من أجله ، ويعرض عنه بسببه ، أو ينافسه فيه ، ومن وُسع عليه منكما فى دنيـاه فليشارك بها أخاه ، ولا ينفرد بها دونه ، وليحرص على تثمير مال أخيه كما يحرص على تثمير ماله . وأظهرا التعاضد والتواصل والتعاطف والتناصر حتى تعرفا به ، فإن ذلك مما ترضيان به ربكما وتغيظان به عدوكما ، وإياكما والتنافس والتقاطع والتـدابر والتحاسد وطاعة النساء فى ذلك فإنه مما يفسد دينكما ودنياكما ، ويضع من قدركما ، ويحط من مكانكما ، ويحقر أمركما عند عدوكما ، ويصغر شأنكما عند صديقكما . ومن أسدى منكما إلى أخيه معروفاً أو مكارمة أو مواصلة فلا ينتظر مقارضة عليها ، ولا يذكر ما أتى منها ، فإن ذلك مما يوجب الضغائن ويسبب التباغض ، ويُقَبِّحُ المعروف ، ويحقر الكبير ، ويدل على المقت والفساد ودناءة الهمة .

(١٩) وإن أحدكما زل وترك الأخذ بوصيتى فى بِرِّ أخيه ومراعاته فليتلافى الآخر ذلك بتمسكه بوصيتى ، والصبر لأخيه ، والرفق به ، وترك المقارضة له على جفوته ، والمتابعة له على سوء معاملته (١٨٠ ب) فإنه يحمد عاقبة صبره ، ويفوز بالفضل فى أمره ويكون لما يأتيه أخوه كبير تأثير فى حاله .

(٢٠) واعلما أنى قد رأيت جماعة لم تكن لهم أحوال ولا أقدار ، أقام أحوالهم ، ورفع أقدارهم اتفاقهم وتعاضدهم ، وقد رأيت جماعة كانت أقدارهم سامية ، وأحوالهم نامية ، مَحَقَ أحوالهم ، ووضع أقدارهم اختلافهم ، فاحذرا أن تكونا منهم . ثم عليكما بمواصلة بنى أعمامكما وأهل بيتكما والإكرام لهم ، والمواصلة لكبيرهم وصغيرهم ، والمشاركة لهم بالمال والحال ، والمثابرة على مهاداتهم ، والمتابعة لزيارتهم ، والتعاهد لأمورهم ، والبر لكبيرهم ، والإشفاق على صغيرهم ، والحرص على نماء مال غنيهم ، والحفظ لعيبهم ، والقيام بحوائجهم دون اقتضاء لمجازاة ، ولا انتظار مقارضة ، فإن ذلك مما تسودان به فى عشيرتكما ، وتعظمان به عند أهل بيتكما . وصلا رحمكما وإن ضَعُفَ سببها ، وقَرِّبا ما بعد منها ، واجتهدا فى القيام بحقها ، وإياكما والتضييع لها ، فقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : مَنْ أَحَبَّ النَسَأَ فى الأجل وَالسَّعَةَ فى الرزق فليصل رحمه . وهذا مما يشرف به ملتزمه ، ويعظم عند الناس معظمه ، وما علمت أهل بيت تقاطعوا وتدابروا إلا هلكوا وانقرضوا . ولا علمت أهل بيت تواصلوا وتعاطفوا إلا نموا وكثروا وبُورك لهم فيما حاولوا .

ثم الجار عليكما بحفظه (١٨١) والكف عن أذاه ، والستر لعورته ، والإهداء إليه ، والصبر على ما كان منه ، فقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لا يُؤْمِنُ مَن لا يَأْمَنْ جَارُه بوائِقَه . وروى عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . واعلما أن الجوار قرابة ونسب ، فتحببا إلى جيرانكما كما تتحببا إلى أقاربكما — ارعيا حقوقهم فى مشهدهم ومغيبهم ، وأحسنا إلى فقيرهم ، وبالغا فى حفظ غيبهم ، وَعَلِّمَا جاهلهم . ثم مَن علمتما مِنْ إخوانى وأهل مودتى فإنه يتعين عليكما مراعاتهم وتعيظمهم ، وبرهم وإكرامهم ومواصلتهم ، فقد روى عن عبد الله ابن عمر أنه حدَّث عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ

أن يصل الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه . ثم إخوانكما عاملاهم بالإخلاص والاكرام وقضاء الحقوق ، والتجافى عن الذنوب ، والكتمان للأسرار . وإيا كما أن تحدثا أنفسكما أن تنتظرا مقارضة ممن أحسنتما إليه وأنعمتما عليه ، فإن انتظار المقارضة تمسح الصنيعة ، وتعيد الأفعال الرفيعة وضيعة ، وتقلب الشكر ذماً ، والحمد مقتاً ، ولا يجب أن تعتقدا معاداة أحد ، واعتمدا التحرز من كل أحد ، فمن قصدكما بمطالبة أو تكرر عليكما بأذية فلا تقارضاه جهدكما ، والتزما الصبر له ما استطعتما ، فما التزم أحد الصبر والحلم إلا عز ونصر ، ومن بغى عليه (٨١ ب) لينصرنه الله ، وقد استعملت هذا — بفضل الله — مراراً فحمدت العاقبة ، واغتبطت بالكف عن المقارضة ، ولا تستعظما من حوادث الأيام شيئاً ، فكل أمر ينقرض حقير ، وكل كبير لا يدوم صغير ، وكل أمر ينقضى قصير . وانتظرا الفرج ، فإن انتظار الفرج عبادة ، وعلّقا رجاءكما بربكما وتوكلا عليه ، فإن التوكل عليه سعادة ، واستعينا بالدعاء والجئا إليه فى البأساء والضراء ، فإن الدعاء سفينة لا تعطب ، وحزب لا يغلب وجند لا يهرب .

(٢٢) وإيا كما أن تستحيلا عن هذا المذهب ، أو تعتقدا غيره ، أو تتعلقا بسواه ، فتهلكا وتخسرا الدين والدنيا ، وربما دعوتما فى شئ فنالكما مع الدعاء معرة ، ووصلت إليكما مضرة ، فازدادا حرصاً على الدعاء ، ورغبة فى الاخلاص والتضرع والبكاء ، فإن[1] نالكما من المضرة بما سلف من ذنوبكما ، واكتسبتماه من سيئ أعمالكما ، ومع ذلك فالذى ألهمكما إلى الدعاء ووفقكما لابد أن يحسن العاقبة لكما ، وقد نجاكما بدعائكما عن الكثير ، وصرف به عنكما من البلاء الكبير .

(٢٣) وإذا أنعم عليكما ربكما بنعمة فتلقياها بالإكرام لها ، والشكر عليها ، والمساهمة فيها ، واجعلاها عوناً على طاعته ، وسبباً إلى عبادته ، والحذر الحذر

---

(١) ربما تكون كلمة (ما) ساقطة من الناسخ لأن السياق يقتضيها .

من أن تهينا نعمة ربكما فتتركاكما مذمومين ، وتزول عنكما ممقوتين ، روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : ياعائشة أحسنى جوارَ نِعَمِ الله تعالى فإنها قل (١٨٢) ما زالت من قوم فعادت إليهم . وإياكما أن تطغيكما النعمة فتقصرا عن شكرها أو تنسيا حقها ، أو تظنا أنكما نلتماها بسعيكما ، أو وصلتما إليها باجتهادكما ، فتعود نقمة مؤذية ، وبلية عظيمة .

(٢٤) وعليكما بطاعة من ولاه الله أمركما فيما لا معصية فيه لله تعالى فإن طاعته من أفضل ما تتمسكان به وتعتصمان به ممن عاداكما ، وإياكما والتعريض للخلاف لهم ، والقيام عليهم ، فإن هذا فيه العطب العاجل ، والخزى الآجل ، ولو ظفرتما فى خلافكما ، ونفذتما فيما حاولتما لكان ذلك سبب هلاككما لما تكتسبانه من المأثم ، وتحدثان على الناس من الحوادث والعظائم ، ثم من سعيتما له ووثقتما به لا يقدم شيئاً على إهلاككما ، والراحة منكما ، فإنه لا يأمن أن تحدثا عليه ما أحدثتما له ، وتنهضان بغيره كما نهضتما به — فالتزما الطاعة وملازمة الجماعة ، فإن السلطان الجائر الظالم أرفق بالناس من الفتنة وانطلاق الأيدى والألسنة . فإن رابكما أمر ممن ولى عليكما ، أو وصلت منه أذية إليكما فاصبرا وانقبضا ، وتحيلا لصرف ذلك عنكما بالاستنزال والاحتمال والإجمال والا فاخرجا عن بلده إلى أن تصلح لكما جهته ، وتعود إلى الإحسان إليكما نيته .

(٢٥) وإياكما وكثرة التظلم منه والتعرض لذكره بقبيح يؤثر عنه فإن ذلك (١٨٢ ب) لا يزيده إلا حنقاً وبغضة فيكما ، ورضى بأضراره بكما ، وابدئا بعد سد هذه الأبواب عنكما بترك منافسة من نافسكما ، ومطالبة من طالبكما ، فإنه قد يبدأ بهذه المعانى من يعتقد أنه لا يتوصل منها إلى محظور ، ولا يتشبث منها بمكروه ، ثم يفضى الأمر إلى ما لا يريده ولا يعتمده من مخالفة الرئيس الذى يقهر من ناوأه ويغلب من غالبه وعاداه ، وإن رأيتما أحداً قد خالف من ولى عليه ، أو قام على من أسند أمره إليه فلا ترضيا فعله ، وانقبضا عنه ،

وأغلقا على أنفسكما الأبواب ، واقطعا بينكما وبينه الأسباب حتى تنجلى الفتنة وتنقضى المحنة .

(٢٦) وإياكما والاستكثار من الدنيا وحطامها ، وعليكما بالتوسط فيها ، والكفاف الصالح الوافر منها ، فإن الجمع لها ، والاستكثار منها مع ما فيه من الشغل بها ، والشغب بالنظر فيها ، يصرف وجوه الحسد إلى صاحبها ، والطمع إلى جامعها ، والحنق على المنفرد بها ، فالسلطان يتمنى أن يزل زلة يتسبب بها إلى أخذ ما عظم فى نفسه من ماله ، والفاسق مرصد لخيانته واغتياله ، والصالح ذام له على استكثاره منه واحتفاله ، يخاف عليه صديقه وحميمه ، ويبغضه من أجله أخوه شقيقه ، إن منعه لم يعدم لائماً ، وإن بذله لم يجد راضياً ، ومن رزق منكما مالا فلا يجعل فى الأصول إلا أقله ، فإن شغبها طويل ، وصاحبها (١٨٣) ذليل ، وليست بمال على الحقيقة إن تغلب على الجهة عدو وحال بينه وبينها ، وإن احتاج إلى الانتقال عنها تركها أو ترك أكثرها .

(٢٧) ومن احتاج منكما فليجمل فى الطلب فإنه لا يفوته ما قدر له ، ولا يدرك ما لم يقدر له ، وقد ذكر الله — تعالى — ما وعظ به العبد الصالح ابنه فى مثل هذا فقال : « يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فى السَّمَوَاتِ أَوْ فى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِير »(١) واجتنبا صحبة السلطان ما استطعتما ، وتحريا البعد منه ما أمكنكما ، فإن البعد عنه أفضل من العز بالقرب منه ، فإن صاحب السلطان خائف لا يأمن ، وخائن لا يؤمن ، ومسىء إن أحسن ، يُخَاف منه ويخاف بسببه ، ويتهمه الناس من أجله ، إن قرب فتن ، وإن أبعد أحزن ، يحسدك الصديق على رضاه إذا رضى ، ويتبرأ منك ولدك ووالدك إذا سخط ، ويكثر لائموك إذا منع ، ويقل

(١) سورة لقمان (٣١) آية رقم ١٦

شاكروك (١) إذا شبع — فهذه حال السلامة معه ، ولا سبيل إلى السلامة ممن يأتى بعده ، فإن امتحن أحدكما بصحبته ، أو دعته إلى ذلك ضرورة فليتقلل من المال والحال ، ولا يغتب عنده أحداً ، ولا يطالب عنده بشرا ، ولا يعص له فى المعروف أمراً ، ولا يستنزله إلى معصية الله تعالى ، فإنه يطلبه بمثلها ، ويصير عنده من أهلها ، وإن حظى عنده بمثلها فى الظاهر (٨٣ ب) فإن نفسه تمقته فى الباطن .

(٢٨) ولا يرغب أحدكما فى أن يكون أرفع الناس درجة ، وأتمهم جاهاً ، وأعلاهم منزلة ، فإن تلك حال لا يسلم صاحبها ، ودرجة لا يثبت من احتلها . وأسلم الطبقات الطبقة المتوسطة ، لا تهتضم مِنْ دعة ، ولا ترمق من رفعة ، ومن عيب الدرجة العليا ان صاحبها لا يرجو المزيد ولا كنه يخاف النقص ، والدرجة الوسطى يرجو الازدياد ، وبينها وبين المخاوف حجاب ، فاجعلا بين أيديكما درجة يشتغل بها الحسود عنكما ، ويرجوها الصديق لكما .

(٢٩) ولا يطلب أحدكما ولاية فإن طلبها شين ، وتركها لمن دعى إليها زين ، فمن امتُحن بها منكما فلتكن حاله فى نفسه أرفع من أن تحدث فيه بأوا ، أو يبدى بها زهواً ، وليعلم أن الولاية لا تزيده رفعة ، ولا كنها فتنة ومحنة ، وأنه معرض لأحد أمرين : إما أن يعزل فيعود إلى حالته ، أو يسئ استدامة ولايته فيقبح ذكره ، ويثقل وزره ، وإن استوت عنده ولايته وعزله كان جديراً أن يستديم العمل فيبلغ الأمل ، أو يعزل لاحسانه فلا يحط ذلك من مكانه ، وأقلا ممازحة الإخوان وملابستهم ، والمتابعة فى الاسترسال معهم ، فإن الأعداء أكثر ممن هذه صفته ، وقل من يعاديك ممن لا يعرفك ولا تعرفه ،

---

(١) وردت فى المخطوط هكذا — يحسدك الصديق على رضاه إذا رضى ، ويتبرأ منك ولدك ووالدك إذا سخط ويكثر لايموك إذا منع ، ويقل شاكروك إذا شبع — بكاف المخاطب ، وأعتقد أن الصواب أن تكون بهاء الغائب حتى يكون الكلام على وتيرة واحدة .

فهذا الذى يجب أن تمتثلاه وتلتزماه ولا تتركاه لعرض ولا لوجه طمع ، فربما (١٨٤) عرض وجه أمر يروق فيستزل عن الحقائق بغير تحقيق ، وآخره يظهر من سوء العاقبة ما يوجب الندم حيث لا ينفع ، ويتمنى له التلافى فلا يمكن فإن فقدتما وصيتى هذه ونسيتما معناها فعليكما بما ذكر الله تعالى فى وصية لقمان لابنه فان فيها جماع الخير . وهى : « يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ[1] خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »[2] . وإنى لأوصيكما وأعلم أنى لن أغنى عنكما من الله شيئاً . « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ »[3] . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كملت الوصية المباركة والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله
الطيبين وصحابته المنتخبين وسلم تسليما كثيراً إلى يوم [الدين] ، وذلك
فى يوم الخميس السابع لشهر ذى حجة مختتم عام تسعة وأربعين وسبعمائة

جودة عبد الرحمن هلال

---

(١) وردت فى الأصل تصاعر . (التحرير)
(٢) سورة لقمان (٣١) آية رقم ١٧
(٣) سورة يوسف (١٢) آية رقم ٦٧